مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

الدعاء وتفاعل الأقدار في ضوء القُرآن الكريم دراسة في قدرة الإنسان على التأثير الروحي ضمن علم الله الكامل

البروفيسور عليرضا النوبري
(الكاتب والمسؤول)، وعضو هيأة التدريس بجامعة طهران كلية المعارف والفكر الإسلامي
a.nobari@ut.a
م.م. أبرار حسن كزار الزيدي
abrar.hasan.kzar@ut.ac.ir
طالبة دكتوراه في جامعة طهرآن كلية المعارف والفكر الإسلامي

المُلخص

يَدرس هذا البحث العلاقة الجدلية والتكاملية بين فعل الدعاء الإنساني ومَفهوم القدر الإلهي، مُستندًا إلى النصوص القرآنية التي تبرز مرونة القدر وتفاعله مع الإرادة الروحية، إذ يبحث العمل في مراتب العلم الإلهي، مُفرقًا بين العلم الذاتي الأزلي والعلم الفعلي المُرتبط بالتحقق الزمني، ليوضح كيف يمكن للدعاء أن يغير مسارات القدر دون الإخلال بسبق العلم الإلهي، كما يتناول البحث الدعاء بوصفه سببًا أصيلًا في نظام السببية الكوني الذي أودعه الله في الوجود، ويستعرض ايضًا نماذج تطبيقية لأنبياء الله (أيوب ومُوسى وهارون)، لبيان أثر الدعاء في تغيير الواقع وتحقيق الطمأنينة، ويهدف البحث إلى تأصيل رؤية فلسفية إيمانية تجمع بين حرية الإنسان وفاعليته الروحية وبين شمولية السلطان الإلهي، ويخلص – إلى أن الدعاء ليس مُجرد استجداء، بل هو تفاعل حيوي يعيد تشكيل خارطة الأسباب الكونية وفق المشيئة الإلهية.

الكلمات المفتاحية: (الدعاء، الضوء، التأثير الروحي).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

Supplication and the Interaction of Destiny in Light of the Holy Quran: A Study of Human Capacity for Spiritual Influence within the Comprehensive Knowledge of God

Professor Alireza Nobari
Author and Editor), Faculty Member, University of Tehran, Faculty of)
Islamic Studies and Thought
ut.a @ a.nobari
Assistant teacher. Abrar Hassan Kzar Al-Zaidi
abrar.hasan.kzar@ut.ac.ir
PhD Candidate, University of Tehran, Faculty of Islamic Studies and Thought

Abstract

This research examines the dialectical and complementary relationship between the act of human supplication and the concept of divine predestination. It draws upon Quranic texts that highlight the flexibility of predestination and its interaction with spiritual will. The work explores the levels of divine knowledge, distinguishing between eternal, intrinsic knowledge and actual knowledge linked to temporal realization. It clarifies how supplication can alter the course of destiny without compromising the pre-existence of divine knowledge. The research also addresses supplication as a fundamental cause within the cosmic system of causality that God has instilled in existence. Furthermore, it presents practical examples from the lives of God's prophets (Job, Moses, and Aaron) to demonstrate the impact of supplication in changing reality and achieving tranquility. The research aims to establish a philosophical and faith-based vision that integrates human freedom and spiritual agency with the comprehensiveness of divine authority. It concludes that supplication is not merely begging, but rather a vital interaction that restores Shaping the cosmic causal map according to divine will.

Keywords: (prayer, light, spiritual influence).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

المُقدمة

الحمدُ لله الذي جعل الدعاء مفتاحًا لرحمته، وصلةً وثيقةً بين العبد وعظمة ملكوته، والصلاة والسلام على من علّمنا أن لا يرد القضاء إلا الدعاء.

يُمثل موضوع الدعاء وتفاعل الأقدار واحدًا من أدق المباحث التي تلامس الوجدان البشري والعقل الإيماني على حد سواء، فهو يطرح التساؤل الأقدم حول مساحة التأثير الإنساني في عالمٍ محكومٍ بعلمٍ إلهيٍ شاملٍ ومحيط، ثم إن هذا البحث ينطلق من رؤية قرآنية ترى في الإنسان كائنًا فاعلًا روحيًا، لا مُجرد ريشة في مهب الأقدار، بل هو طرفٌ في حوارٍ غيبيٍ يغير وجه الواقع بالكلمة الصادقة والافتقار المحض، وتبرز أهمية الدراسة من الحاجة الملحة لفك الأشتباك بين الفهم الخاطئ للقدر(الذي قد يؤدي للتواكل)، وبين الفهم الحقيقي للدعاء كطاقةٍ محركةٍ للأسباب، فإننا بصدد رحلة استقصائية تبدأ من تحديد المفاهيم اللغوية والإصطلاحية، لتنتقل إلى عمق الفلسفة الإلهية في التمييز بين العلم الأزلي والثبات، وبين العلم الفعلي والتغير، والقدر في التصور القرآني ليس قيدًا مكبلًا، بل هو إطارٌ حكيمٌ يمنح الدعاء مشروعية السببية، حيث يصير التوجه الروحي لله جزءًا لا يتجزأ من نظام الكون، ومن خلال استعراض تجارب الأنبياء(عليهم السلام)، نجد أن الدعاء كان هو المنعطف الذي غير موازين القوى، سواء في شفاء أيوب من البلاء أو في طمأنة مُوسى وهارون(عليهم السلام)، أمام بطش الطغاة، ويسعى هذا البحث إلى تقديم إطار معرفي يعيد للإنسان ثقته بقدرته على التأثير الروحي، مُؤكدًا أن يد الله التي كتبت الأقدار هي ذاتها التي تستجيب للأكف المرفوعة، في تناغمٍ مذهل يجمع بين ثبات العلم وحيوية الإستجابة.

المبحث الأول: المفاهيم المؤسِسة للدعاء والقدر ومراتب العلم الإلهي

يهدف هذا المطلب إلى فض الأشتباك المفاهيمي بين ثبات القدر وتغير الواقع بالدعاء، من خلال تعريف المُصطلحات تعريفًا قرآنيًا، ويمكن بيان هذا المطلب على النحو الآتي:

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

المطلب الأول: مَفهوم الدعاء في اللغة والإصطلاح القرآني

ولهذا المطلب مقصدان هما:

أولاً: مَفهوم الدعاء في اللغة: إن الدعاء مأخوذ مادة:"دعو: الدال والعين والحرف المُعتل أصل واحد وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول دعوت أدعو دعاء" (بن زكريا، ١٤٠٤ هـ:٢/٢٧٩ ، مادة :دعو ؛ ابن منظور:١٩/٤٠٥ ، ١٤/٤٦٥ ، مادة:دعو ؛ المصطفوي، ١٤١٧ هـ:٣/٢١٨).

إلا إنّ صاحب اللسان فصل أكثر قائلاً:"والدُّعاءُ، بالضَّمِّ مَمْدوداً؛ الرَّغْبَةُ إلى اللَّهِ تعالى فيمَا عنْدَه مِن الخيْرِ والابْتِهال إليه بالسُّؤَالِ؛ ومنه قوْلُه تعالى: **(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)**(الأعراف:٥٥)(ابن منظور:١٩/٤٠٥ ، مادة:دعو) .

فالمادة في هذا اللفظ انّ الأصل وحد زهو طلب شيء لأن يتوجّه اليه أو يرغب اليه أو يسير اليه، ففي كلّ مورد بحسبه، وهذا المعنى قريب من الندب ويعبّر عنه بالتركيّة بكلمة – چاغرماق، وبالفارسيّة بكلمة – دعوت كردن وخواندن، ومفهوم النداء فيه جهة المُخاطبة فقط، وهو مطلق الصياح به، وهو مقدّم على الدعاء، كما انّ القصد والإرادة قبل النداء (المصطفوي، ١٤١٧ هـ:٣/٢١٨).

ثانياً: مَفهوم الدعاء في المصطلح القرآني: إن الدعاء هو"وسيلة لمعرفة الخالق ومعرفة صفاته الجمالية والجلالية، ووسيلة أيضا للتوبة من الذنب، ولتطهير الروح، وسبب أيضاً لأداء الحسنات للجهاد والجد والإجتهاد إلى مُنتهى الإستطاعة" (الشيرازي:١١/٣٢٩).

وذهب السيد الطباطبائي(رحمه الله)، قائلاً: فإن حقيقة الدعاء والسؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة، دون ما يأتي به اللسان الذي يدور كيفما أدير صدقاً أو كذباً جداً أو هزلا حقيقة أو مجازاً، ولذلك ترى أنه تعالى عد ما لا عمل للسان فيه سؤالاً، قال تعالى:(**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)** (إبراهيم:٣٤) (الطباطبائي:٢/٣٣).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وإن العدة في ذلك" الاخلاص في دعائه لله تعالى وهو مواطات القلب اللسان والإنقطاع عن كل سبب دون الله والتعلق به تعالى، ويلحق به الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرع والاصرار والذكر وصالح العمل والايمان وأدب الحضور وغير ذلك" (الطباطبائي:٢/٣٥).

وقيل إن الدعاء هو الإعتراف بالعبوديّة والذلّ لله سبحانه وتعالى(الطهراني، ١٣٣٧ ش:٩/٢٧٠ ؛ البحراني :٥/٣٣ ؛ المازندراني، ١٤٢١هـ :١٠/٣٣٧ ، ح:٧ ؛ الشيرازي:٣٢٩-١/٣٣٣).

فالإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض الباري تعالى، وواضح أن السعي للتكامل ولكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة (الشيرازي:١/٥٣١).

وخلاصة ما تقدم إن الدعاء في القُرآن ليست مُجرد كلمات عابرة، بل هو من أرقى نداء الوجود للواجد، ويعد قمة الفاعلية الروحية التي تعيد ربط العبد بالأسباب العليا، نحو قوله تعالى:(**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**) (الفرقان:٧٧).

أي ما يصنع أو لا يكترث بكم(**لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**)، عبادتكم له أو دعاؤه إياكم إلى الذين :(**فَقَدْ كَذَّبْتُمْ** ، بما أعلمتكم به إذ خالفتم **فَسَوْفَ يَكُونُ**، جزاء تكذيبكم أو أثره **لِزَامًا** ، لازما لكم في الآخرة(شبر، ١٣٨٥هـ :٣٥٣).

وفي هذه الحالة هو أن يستخدم الإنسان كل قدرته، وقوته واستطاعته في عمله، ويؤدي بأعلى درجة من الجد والاجتهاد، ثم يرفع يديه ويوجه قلبه إلى بارئه بالدعاء (الشيرازي:١١/٣٢٩).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

المطلب الثاني: مَفهوم القدر الإلهي وعلم الله الذاتي

ويمكن بيان هذا المطلب من خلال:

أولًا: مَفهوم القدر الإلهي: يُعرف القدر الإلهي هو الهندسة الإلهية التي وضعها الله للأشياء، وهو نوعان: محتوم (لا يتغير)، ومعلّق يتوقف على فعل الإنسان كالدعاء(مُغنية، ١٩٨١ م:١/٣٨١).

ومثال ذلك قوله تعالى: **(وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ)** (الرعد:٨)، وهو التأكيد على أن لكل نتيجة مقدارًا من السبب، والدعاء أحد هذه المقادير(الشريف الكاشاني، ١٤٢٣ هـ:٣/٤٣٢).

وبعبارة أخرى أي بقدر لا يجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: **(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاه بِقَدَرٍ)** (القمر:٤٩)، فإنّه تعالى خصّ كلّ حادث بوقت وحال معيّنين، وهيّأ له أسبابا مسوقة إليه ، تقتضي ذلك على ما توجبه الحكمة (الشريف الكاشاني، ١٤٢٣ هـ:٣/٤٣٢ ؛ المشهدي، ١٤٠٧هـ:٦/٤١٦).

أي بنظام وسبب، لابالصدفة والفوضى، حتى المال الحرام، والسلطان القائم على الظلم والاستبداد لهما أسبابهما الاجتماعية من نظام جائر، ومجتمع فاسد، وجهل قاتل ، وما إليه (مُغنية، ١٩٨١ م:١/٣٨١).

وخلاصة ما تقدم إن الله تعالى لا يخلق عبثًا ومن غير أصول، بل لكل شيء حده ونظامه في الكم من حيث أجزاؤه ومقوماته وخواصه وآثاره ، وفي الكيف من حيث شكله وصورته ومكانه وزمانه ، وأسبابه وسننه – كل ذلك على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة . . وكل ما يستطيعه الإنسان هو أن يرى ويراقب، ويعادل ويقيس، وقد يخطئ أو يصيب، لأن علم الإنسان مكتسب يفتقر إلى سبب، وكثيرا ما يظن ان هذا الشيء سبب للعلم بكذا، وهو في واقعه جهل محض ، أما علمه تعالى فهو ذاتي وعين الواقع (مُغنية، ١٩٨١ م:٤/٣٨٤).

ثانيًا: مَفهوم علم الله الذاتي(الأزلي): هو علم الله القديم بكل ما كان وما يكون وما سيكون، وهو علم ثابت لا يتغير بتغير الأفعال، بل هو محيط بها قبل وقوعها(السبحاني:٧٨).

ومن الامثلة على ذلك قوله تعالى:(**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) (الملك:١٤).

إي هو المُتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن وإن صغر ولطف لا يعزب عنه شئ ولا يفوته روي أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيخبر الله بها رسوله فيقولون أسروا قولكم لئلا يسمع إله مُحَمَّد(صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، فنبه الله على جهلهم (السمرقندي:١/٤٦٢ ؛ البيضاوي، ١٤١٨هـ :٥/٢٣٠ ؛ الشريف الكاشاني، ١٤٢٣ هـ:٧/١٢٨ ؛ الفيض الكاشاني، ١٤١٦هـ:٥/٢٠٢).

وهذه دلالة على علم الله الذاتي بما يصنع قبل وبعد تكوينها.

ثالثًا: العلم الفعلي(علم الله الفعلي): هو العلم المرتبط بحدوث الأشياء في الزمان والمكان (خارج الذات)، وهو الذي تظهر فيه آثار الدعاء والتغيير والتبديل (الشيرازي:١٠٦/١٩).

وقيل"هو حضور الفعل بنفسه عند الله تعالى، كما أن الصور المعقولة والذهنية حاضرة عندنا بنفسها وعلمنا بها عينها، فالتغير في هذا العلم لا بأس به؛ لأنه يرجع إلى تغير في ناحية الفعل لا في ناحية الذات" (الخزازي، ١٤١٨ هـ:١/٤٧).

رابعًا: التوفيق بين العلم والتغيّر: إنّ الفرق بين الإجابة الذي تعني أن يستجيب الله عز وجل لك؛ لكن الإجابة لكن لا تكون وفق ما طلبت أي أن المولى تبارك وتعالى يحقق لك الخير وفق ما يعلمه سبحانه بأن يمنع عنك ضر كان سيصيبك وغير ذلك، لكن الإستجابة أن يحقق الله لك عين ما طلبت بأن تطلب مالًا فيعطيك مالًا، وظيفة، صحة، وهكذا (الدعاء حقيقته، ١٤١٩هـ:١-٣٠).

وبعبارة أخرى فالإجابة من الله –عزَّ وجلَّ– الإعطاء، ومن العبد الطاعة(الثعلبي، ١٤٢٢هـ :٢/٧٥)، والإسيتجابة هي تلبية دعوات العباد من قِبل الله، فقد وعد الله عباده في القُرآن بإستجابة دعواتهم، إلا أن الاستجابة قد تتأخر بسبب حكمة إلهية (المصطفوي، ١٤١٧ هـ:٢/١٣٥).

أي الإستجابه من الله يعنى طلب الإجابه من جانب الله من الأسباب المادى أو المعنوى لحصول الغرض الداعى.

أي إن استجابة الله تعالى للدعاء لا تعني حدوث علم جديد له، بل تعني أن الله علم أزليًا (بعلمه الذاتي)، أي أن العبد سيدعوه فإستجاب له (بعلمه الفعلي).

المطلب الثالث: الدعاء بوصفه سببًا في نظام السببية الكوني

يوضح هذا المطلب أن الدعاء ليس خروجًا عن القوانين، بل هو تفعيل للقوانين المشروطة أي الأسباب الروحية، نحو قوله تعالى:(**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) (الرعد:١١).

لقد كَثرت أقوال المُفسرين في شأن هذه الآية إلا أن الذي أستوقفني هو بيان الشيخ مُحَمَّد جواد مغنية(رحمه الله تعالى)، وهو الأقرب إلى الواقع قائلًا: قال المُفسرون: إنّ هذه الآية تدل على ان القوم الذين يعيشون بنعمة المال والأمن الجاه فإن الله لا يغيرها عنهم ما داموا يقيمون الصَلاة ويؤتون الزكاة، فان عصوا زالت عنهم هذه النعمة (الطوسي، ١٤٠٩ هـ:٦/٢٨٨ ؛ الطبرسي، ١٤١٨هـ:٢/٢٥٣ ؛ الشريف الكاشاني، ١٤٢٣ هـ:٣/٤٣٤).

ثم يتابع فيقول أما نحن فنفسر الآية في ضوء تعاليم الإسلام، وواقع الحياة، وما يتحمله لفظ الآية من معنى، أما تعاليم الإسلام فمن أهمها وجوب جهاد النفس إذا مالت إلى المُحرمات والمُوبقات، أو رضيت بالذل والفقر، والجهاد بالنفس والمال في سبيل العدل والتحرر من الظُلم والرق وليس من شك أن من استنكف عن الهوان، واستهان بالحياة وأبى إلا الكرامة أو الموت شمله الله بعنايته، وأخذ بيده إلى ما يبتغيه ويهدف إليه، ومن خلد إلى الراحة

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

والكسل مهما كانت نتائجه يخذله الله، ويكله إلى ضعفه، ولا ينظر إليه أو يسمع له، وان ملأ الدنيا تضرعا وبكاء، وعبادة ودعاء(مُغنية، ١٩٨١ م:٤/٣٨٦).

وبهذا يتضح معنى قوله تعالى:(**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**) (الرعد:١١)، وانه جلت عظمته يبقي الإنسان في البؤس والهوان، ما دام في جموده وركوده، لا يقاوم باطلا، ولا يحرك ساكنا للتخلص مما هو فيه...، وأن الله لا يغير ما بنا من فقر حتى نعتقد أن الفقر من الأرض لا من السماء، وحتى نكافح ونجاهد ضد الإستغلال والإستثمار، وحتى نقيم المصانع، وننشئ المزارع، والله لا يغير ما بنا من جهل حتى نبني الجامعات والمُختبرات، والله لا يغير ما بنا من عبودية حتى نثور على الظالمين والمُستبدين، والله لا يغير ما بنا من شتات حتى نخلص النوايا، ونزيل ما بيننا من الحدود والحواجز (مُغنية، ١٩٨١ م:٤/٣٨٦).

وفي نصٍ آخر يُوضح الأسباب الروحية (التقوى)، نحو قوله تعالى:(**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**) (الطلاق:٢).

فالآية الكريمة تُبين أن(**مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ**) ، ويتورع عن محارمه ولم يتعد حدوده واحترم لشرائعه فعمل بها (**يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**)، من مضائق مشكلات الحياة فإن شريعته فطرية يهدى بها الله الانسان إلى ما تستدعيه فطرته وتقضي به حاجته وتضمن سعادته في الدنيا والآخرة (**وَيَرْزُقْهُ**) (الطلاق:٢)، من الزوج والمال وكل ما يفتقر إليه في طيب عيشه وزكاة حياته(**مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**) (الطلاق:٣)، ولا يتوقع فلا يخف (**مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**)(الطلاق:٣)، ولا يتوقع فلا يخف لمؤمن أنه إن اتقى الله واحترم حدوده حرم طيب الحياة وابتلي بضنك المعيشة فإن الرزق مضمون والله على ما ضمنه قادر(الطباطبائي :١٩/٣١٤).

والملاحظ أن الدعاء لا يكسر قانون السببية، بل هو جزء من القانون؛ فالله قدر المسبب بشرط الدعاء.

ثم تأتي الإجابة (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**) (الطلاق:٣)، أي" من التوكل على الله هو أن يسعى الإنسان لأن يجعل عاقبة عمله وكدحه على الله ويوكلها إليه، ويدعوه

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

لتسهيل أمره ، فإنه لطيف بعباده رحيم بهم وعلى كل شئ قدير، والشخص الذي يعيش حقيقة " التوكل على الله " لا يجد اليأس إليه منفذا، ولا يدب في عزمه الضعف ، ولا يشعر بالنقص والصغر أمام المشاكل مهما كبرت، ويبقى يقاوم ويواجه الأحداث بقوة وإيمان راسخين . ويعطيه هذا الإيمان والتوكل قدرة نفسية عظيمة يستطيع معها تجاوز الصعاب، ومن جانب آخر تنهمر عليه الإمدادات الغيبية والمساعدات التي وعده الله" (الشيرازي:٤١٧-١٨/٤١٨).

ففي حديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : سألت من جبرائيل : ما التوكل ؟ قال" العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق ، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ، ولم يرج ولم يخف سوى الله ، ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هو التوكل" (القمي، ١٣٧٩هـ :٢٦٠ ؛ الطبرسي، ١٤١٨هـ:٤٢٣).

فالتوكل بهذا المضمون العميق يمنح الإنسان شخصية جديدة ويكون له تأثير على جميع أعماله . لذا نقرأ في حديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه سأل الله عز وجل في ليلة المعراج : إلهي أي الأعمال أفضل ؟ قال تعالى: " ليس شئ عندي أفضل من التوكل علي والرضا بما قسمت " (الشيرازي:٤١٧-١٨/٤١٨).

وفي نصٍ آخر يُشير إلى الإخلاص كسبب نحو قوله تعالى:**(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)** (غافر:١٤).

فالخطاب موجه للمؤمنين ، والمراد بالدعاء هنا العبادة ، وبالدين الطاعة ، والمعنى اعبدوا الله وحده(الطوسي، ١٤٠٩ هـ:٩/٦٢)، ولا تشركوا(الشريف الكاشاني، ١٤٢٣ هـ:٦/١٢٣) ، وأطيعوه في أمره ونهيه ، ولا تأخذكم في ذلك لومة لائم ، وقد سهل سبحانه لعباده سبل طاعته ، حيث أرشدهم محذرا ، وكلفهم يسيرا، وما ترك عذرا لمتعلل(**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ)** (غافر:١٥)، هذا كناية عن علوه تعالى وعظمته، وقيل: ان المراد بالدرجات هنا تفاوت العارفين بالله في معرفتهم به قوة وضعفا، ابتداء من معرفة الرجل العادي إلى معرفة الفلاسفة والأنبياء(الطبرسي، ١٤١٥هـ :٨/٤٣٠ ؛ ابن شهرآشوب : ١/٦٩ ؛ الحلّي،

١٤٠٩هـ:٢/٢٣٩) **(ذُو الْعَرْشِ)** (غافر:١٥)، أي كناية عن الملك والاستيلاء(مُغنية، ١٩٨١ م:٦/٤٤٣).

المطلب الرابع: جدلية التفاعل بين الدعاء والقدر

يتناول هذا المطلب كيفية دفع البلاء وتغيير القدر المعلق(الأجل المسمى والمطلق)، ففي قصة قوم يونس قوله تعالى: **(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ)** (يونس:٩٨).

ويستفاد من هذه الآية والآيات الأخرى وبضم بعضها إلى بعض واعتبار القرائن الحافة بها أن يونس(عليه السلام)، كان من الرسل أرسله الله تعالى إلى قومه وهم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلا بالتكذيب والرد حتى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس (عليه السلام)، ثم خرج من بينهم، فلما أشرف عليهم العذاب وشاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الايمان والتوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا (الطباطبائي:١٦٧-١٦٨).

ثم إن يونس(عليه السلام)، استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم – وكأنه لم يعلم بإيمانهم وتوبتهم – فلم يعد إليهم وذهب لوجهه على ما به من الغضب والسخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربه مغاضبا عليه ظانا أنه لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون، فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بدا من أن يلقوا إليه واحدا منهم يبتلعه وينجو الفلك بذلك فساهموا وقارعوا فيما بينهم فأصابت يونس(عليه السلام)، فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة (الطباطبائي:١٦٧-١٦٨).

ثم أن الله سبحانه حفظه حيا سويا في بطنه أياما ولياليي ويونس عليه السلام يعلم أنها بلية ابتلاه الله بها مؤاخذة بما فعل وهو ينادي في بطنه:**(أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)** (الأنبياء:٨٧).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

فاستجاب الله له فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهو سقيم فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظل بأوراقها ثم لما استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبوا دعوته وآمنوا به فمتعهم الله إلى حين (الطباطبائي:١٦٧-١٦٨).

فيتبين بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعي الرشيد الحريص في القوم أو الأمة ، في حين أن العابد الذي لا يمتلك الوعي الكافي يعتمد على الخشونة أكثر، وهكذا يفهم من هذه الرواية منطق الإسلام في المقارنة بين العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالإحساس بالمسؤولية (الشيرازي:٦/٤٤١).

وتُعد هذه الآية البرهان القرآني الأسمى على فكرة القدر المعلّق وتغيير المسارات القدرية بالفعل الإنساني الإيمان والدعاء، والذي تؤصل لقاعدة استثنائية في نظام التعامل الإلهي مع البشر؛ فبينما جرت السنة الإلهية أن العذاب إذا نزل أو أظلَّ قوماً لا ينفعهم إيمانهم حينها، جاء قوم يونس كنموذج لكسر هذا التقدير الوشيك من خلال الصراخ والضجيج بالدعاء والتوبة الجماعية.

روي عن النبي(صلى الله عليه وعلى آله وسلم):"لا يرد القضاء إلا الدعاء" (الترمذي، ١٤٠٣ هـ:٣/٣٠٣) (الراوندي، ١٤٠٧ هـ:٢١).

وقيل في شأن هذا الحديث موردين إثنين(المجلسي، ١٤٠٤هـ :١٢/١٤):

أحدهما: أن يراد بالقضاء ما يخافه العبد من نزول المكروه ويتوقاه، فإذا وافق الدعاء دفع الله عنه فيكون تسميته بالقضاء على المجاز.

وثانيهما: أن يراد به الحقيقة فيكون معنى رد الدعاء بالقضاء تهوينه وتيسير الأمر فيه ، حتى يكون القضاء النازل كأنه لم ينزل به ، ويؤيده الحديث أن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل أما نفعه مما نزل فصبره عليه وتحمله له ورضاه به حتى لا يكون في نزوله متمنيا خلاف ما كان، وأما نفعه مما لم ينزل فهو أن يصرفه عنه أو يمده قبل النزول بتأييده من عنده ، حتى يخف معه أعباء ذلك إذا نزل به.

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وفي آية أخرى يضع القُرآن الكريم قاعدة ذهبية تفصل بين مرتبتين من مراتب الوجود مرتبة لوح المحو والإثبات وهي الساحة التي تتفاعل فيها الأسباب والمسببات كالدعاء والعمل الصالح، ومرتبة أم الكتاب وهي العلم الأزلي المحيط قال تعالى: **(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)** (الرعد:٢٩).

فأم الكتاب الواردة في الآية المباركة كناية عن علمه تعالى بما كان ويكون ، ولو جاز لنا تفسير الألفاظ بالذوق والاستحسان لفسرنا الكتاب بالكون، والأم بعناصره وأسراره ، لأن لله كتابين وفي كل منهما آيات بينات على وجوده ووحدانيته، وجلاله وعظمته : أحدهما ينطق بلسان الحال ، وهو الكون ، والآخر بلسان المقال، وهو القرآن(مُغنية، ١٩٨١ م:٤/٤١٦).

أما المحو والإثبات فقد نقل الشيخ الطبرسي(رحمه الله)، في معناهما ثمانية أقوال ، وأقربها ان المراد بالمحو نسخ الشريعة كالشرائع القديمة، أو نسخ بعض أحكامها كنسخ الصلاة إلى بيت المقدس من الشريعة الاسلامية(الطبرسي، ١٤١٥هـ :٦/٤٨)، أما الإثبات فالمراد به إقرار الأحكام ورسوخها إلى يوم القيامة، وعليه يكون المعنى ان الله سبحانه ينسخ أو يقر الشريعة كلا أو بعضا حسبما تستدعيه الحكمة والمصلحة، وهو جلت عظمته عالم بما يصلح العباد وما يفسدهم، فينهاهم عن هذا، ويؤمرهم بذاك دواما أو مؤقتا على مقتضى علمه بأمد المضار والمنافع(مُغنية، ١٩٨١ م:٤/٤١٦).

وخلاصة ما تقدم إن هذه الآية جاءت لتؤكد أن الله سبحانه جعل من نظام خلقه مساحة للتغيير والتبديل استجابةً لمتغيرات إنسانية، دون أن يخرج ذلك عن إطار علمه الكلي، مما يجعل الدعاء أداةً فاعلة داخل نظام المحو لا تصطدم بالثبات الأزلي.

وفي مثالٍ آخر من السيرة النبوية وهي استغاثة النبي(صلى الله عليه وعلى اله وسلم)، وتنزيل المدد الإلهي كقضاء جديد استجابة للدعاء، وهو كيف اجاب سبحانه نصرة المُسلمين وتحديدًا في غزوة بدر الكبرى قال تعالى: **(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)** (الانفال:٩)، والآية الكريمة تؤكد"لما تأكد المُسلمون إن القتال واقع لا

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

محالة مع عدو أقوى عدة، وأكثر عددا التجأوا إلى الله يطلبون منه النجاة من هذه الشدة، ولما علم الله منهم صدق النية والعزم أنبأهم جل ثناؤه بلسان نبيه(صلى الله عليه وعلى اله وسلم)، إنه قد استجاب دعاءهم، وانه ينجدهم بألف ملك يأتي بعضهم إثر بعض" (مُغنية، ١٩٨١ م:٣/٤٥٦).

ويسأل السائل في هذا المقام ما وجه الجمع بين هذه الآيات في قوله تعالى من سورة الأنفال:(**مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**) (الانفال:٩)، وفي سورة آل عمرآن قال تعالى: (**يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ**) (آل عمران:١٢٤)، وفي الآية التي بعدها قال تعالى: (**يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**) (آل عمران:١٢٥).

والجواب عن ذلك" إن الإمداد هو الإنزال من السماء، إما قوله تعالى:(**مُسَوِّمِينَ**) من السيماء، أي لهم علامة تدل عليهم(النحوي، ١٩٧٥م:١/٢٥١)، وقد دل قول الله هذا دلالة لا تقبل التأويل إنه جلت قدرته قد أمد المُسلمين بالملائكة في بعض حروبهم، وقد دلت الروايات الكثيرة، واتفق المُسلمون على إن الله أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المُؤمنين(النيسابوري، ١٤١٥هـ:١/٢٣٠ ؛ الفيض الكاشاني، ١٤١٨هـ:١/١٧١ ؛ النجفي، ١٣٥٢هـ:١/٣٣٩)، واختلفوا في إنزالهم يوم أحد، وليس من شك ان الله سبحانه أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المُؤمنين؛ ولكن لا نعلم نوع هذا النصر هل كان نصراً مادياً كالقتال، أو نصراً معنوياً كتخويف المُشركين، وحصول الطمأنينة للمُؤمنين، الله أعلم(مُغنية، ١٩٨١ م:٢/١٥١).

ثم إن"هناك أدلة تُفيد إن الملائكة تتصور بصورة البشر، منها ما أخبر الله به عن ضيف إبراهيم(عليه السلام)، كما في قوله تعالى من سورة الحجر:(**وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ**) (الحجر:٥١)، إلى قوله: (**إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ**) (الحجر:٥٨)، ومنها عن ضيوف لوط كما في قوله تعالى: (**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**) (هود:٧٧)، ومنها قوله تعالى: (**فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا**) (مريم:١٧)، ومنها إن جبريل كان يأتي رسول الله(صلى الله عليه وعلى اله وسلم)، في صورة...؛ ولكن تصور الملائكة بصورة البشر لا يحتم انهم قاتلوا من أجل المُسلمين، بل من الجائز أن يناصروهم

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

بطريق آخر غير القتال: **(وما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ومَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** (آل عمران:١٢٦).

ويقول تبارك وتعالى:" ان الغرض من هذا الإمداد ان تطمئنوا وتصبروا في قتال العدو، لا أن تتكلوا على الملائكة، بل عليكم أن تبذلوا كُل جهد، ولا تبقوا منه بقية، أما النصر فلا يكون ولن يكون إلا بمشيئة الله، لا بجهودكم ولا بإمداد الملائكة" (مُغنية، ١٩٨١ م:٢/١٥٢).

وبما ويسأل السائل:" هل أمدهم الله أولا بألف، ثم بثلاثة، ثم بخمسة، حتى صار المجموع تسعة، أو ماذا ؟ والجواب عن ذلك: "ان الله أمدهم أولاً **(بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)** (الانفال:٩)، أي لهم تبع، ثم ضم إلى الألف ألفين، فصاروا ثلاثة، ثم ضم إلى الثلاثة ألفين آخرين، فصار المجموع خمسة؛ وبما يقول القائل إن الله أمد المُسلمين يوم بدر بألف، ثم بلغهم أن بعض المُشركين يُريد أن يمدّ قريشاً بعدد كبير من المُقاتلين، فخاف المُسلمون، وشق ذلك عليهم، لقلة عددهم، فوعدهم بخمسة آلاف من الملائكة أن جاء المدد إلى قريش؛ ولكن بثلاثة شروط، وهي الصبر والتقوى ومجئ الكفار على الفور، كما نطقت الآية الكريمة:(**إِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا ويَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ)** (آل عمران:١٢٥)؛ ولكن هذا المدد لم يأت قريشاً، فإستغنى المُسلمون عن الإمداد بالزيادة على الألف(مُغنية، ١٩٨١ م:٢/١٥٢).

وللمُتتبع" إن هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطاف الإلهية الكثيرة التي شملت المُسلمين لتثير في نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر، ولتعبيد الدرب نحو انتصارات المُستقبل" (الشيرازي:٥/٣٧٦).

والخلاصة: هنالك اختلاف فيمن المقصود بالآية الكريمة: **(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)** (الانفال:١٩)، هل هم الكافرون أم المُؤمنون الذين تم توبيخهم في اولى السورة من حيث نوع اللقاء مع رسول الله (صلى الله عليه وعلى اله وسلم)؛ ولكن على اعتبار أن كلمة الإستفتاح **(تَسْتَفْتِحُوا)**، فى الايه هي في الواقع دعاء، لتحقيق النصر، ربما يكون

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

الإحتمال الثاني هو الأنسب أي أنتم الذين استنصرتموننني في دعائك، نصرتك بإجابة دعائك، فإذا تراجعت الآن عن مُخالفة الرسول وقبلت كلامه فهو خير لك؛ ولكن إن رجعت، لمعارضته في الحكم مرة أخرى، فسوف نوبخكم(مُغنية، ١٩٨١ م:٣/٤٦٢).

وفي هذا الصدد فإن عددكم صغيراً كان أو كبيراً (قليلا او كثيرا)، لا يشكل فرقاً في الأمر؛ ولكن معيار صحبة الله هو الإيمان ومُلحقاته السلوكية فقط، والآية(٢٠)، من سورة الأنفال: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)** (الانفال:٢٠)، التي تعود مرة أخرى إلى مسألة طاعة الرسول تؤكد هذا الرأي (الشيرازي:٢٨٨-٣/٢٩٨)، وتُشير الآية(٢١)، من سورة الأنفال:(**ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)** (الانفال:٢١)، أيضًا إلى الفصل بين مجموعتين من المُؤمنين وكيفية عملهما، ويظهر أن فئة المُؤمنين الذين خالفوا أوامر حكومة الرسول الكريم ليس لديهم أي نية لتصحيح سلوكهم بسبب شخصيتهم وليس هناك أي مبرر لهم (مُغنية، ١٩٨١ م:١/٢٦٣).

وتشير الآية(٢٥)، من السورة نفسها(**اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)** (الانفال:٢٥)، إلى نتيجة مثل هذا السلوك، وهي النتيجة التي يمكن أن تحترق رطبة وجافة معًا(الشريف الكاشاني، ١٤٢٣ هـ:٣/٢٦).

المطلب الخامس: النماذج التطبيقية الدعاء في حراك الأنبياء(عليهم السلام)

ففي هذا المطلب سوف نستعراض بعض الأمثلة القرآنية التي غير فيها الدعاء واقعًا كان يبدو حتميًا، ويمكن بيان هذا المطلب على النحو الآتي:

أولًا: استجابة الله سبحانه وتعالى لدعاء النبي الله أيوب(عليه السلام): إنّ الذي اصاب نبي الله أيوب(عليه السلام)، ومن خلال قوله تعالى: **(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)** (الأنبياء:٨٣-٨٤)، تُؤيّد معنى البكاء والعويل والندبة المفهومة من كلمة أيّوب(عليه السلام) (المصطفوي، ١٤١٧ هـ:١/٢٠١).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وفي هذه الآية المُباركة ملامح لابُدّ من ذكرها والوقوف عليها:

١- **نبي الله أيوب(عليه السلام)، والمصائب الذي حلت به:** تتحدث الآيتان عن نبي آخر من أنبياء الله العظماء وقصته الملهمة، وهو" أيوب " وهو عاشر نبي أشير إلى جانب من حياته في سورة الأنبياء، ثم إن لأيوب قصة حزينة، وهي في نفس الوقت عظيمة سامية، فقد كان صبره وتحمله عجيبين، خاصة أمام الحوادث المرة، بحيث أن صبر أيوب أصبح مضرباً للمثل منذ القدم، غير أن هاتين الآيتين تشيران – بصورة خاصة – إلى مرحلة نجاته وانتصاره على المصاعب، واستعادة ما فقده من المواهب؛ ليكون درساً لكل المُؤمنين على مرّ الدهور ليغوصوا في المشاكل ويخترقوها، ولا سيما لمُؤمني مكة الذين كانوا يعانون ضغوطاً من أعدائهم عند نزول هذه الآيات، فتقول:(**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) (الأنبياء:٨٣).

٢- **الضر وما جرى لنبي الله أيوب(عليه السلام):** إن كلمة الضر(الطباطبائي : ١٤/٣١٤)، تطلق على كل سوء وأذى يصيب روح الإنسان أو جسمه(الطبرسي، ١٤١٥هـ :٧/١٠٦)، وكذلك لنقص عضو، وذهاب مال، وموت الأعزة وانهيار الشخصية وأمثال ذلك، وكما سنقول فيما بعد، فإن أيوب قد ابتلي بكثير من هذه المصائب(الفيض الكاشاني، ١٤١٨هـ:٢/٧٨٨)، إن أيوب – كسائر الأنبياء(عليهم السلام)، يظهر أقصى حالات الأدب والخضوع أمام الله عند الدعاء لرفع هذه المشاكل المضنية المجهدة ، ولا يعبر بتعبير تشم منه رائحة الشكوى، بل يقول فقط إني ابتليت بهذه المصائب وأنت أرحم الراحمين، فهو حتى لا يقول حل مشكلتي؛ لأنه يعلم أنه جليل عظيم، وهو يعرف حق العظمة (الشيرازي:٢٢٥-١٠/٢٢٦).

٣- **مراحل استجابة لدعاء لنبي الله ايوب(عليه السلام):** تقول الآية التالية:(**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ**) (الأنبياء:٨٤)، ليعلم المُسلمون أن المشاكل كلما زادت، وكلما زادت الإبتلاءات، وكلما زاد الأعداء من ضغوطهم وضاعفوا قواهم؛ فإنها جميعاً ترفع وتحل بنظرة ومنحة من لطف

الله(ابن شهرآشوب:١/١٣٧)، فلا تجبر الخسارة وحسب، بل إن الله سبحانه يعطي الصابرين أكثر مما فقدوا جزاء لصبرهم وثباتهم، وهذا درس وعبرة لكل المُسلمين، وخاصة المسلمين الذين كانوا تحت محاصرة العدو الشديدة، وتحت ضغط المشاكل عند نزول هذه الآيات (الشيرازي:٢٢٥-٢٢٦/١٠).

والذي يظهر للبحث"إن أيوب كان في عافية وهناء، ثم تراكم عليه البلاء، وأحاط به من كل جانب، حتى صار مضرب الأمثال، فأصيب بنفسه وأهله، فصبر صبر الأحرار، وبقي على ثقته ويقينه بالله لا يشغله عن طاعته حزن ولا ألم، ولما طال عليه الأمد، واشتدت وطأة الآلام، ولم يجد منها مخرجاً شكا أمره إلى الله بكلمتين مسني البلاء، وأنت رحيم وكريم...، قال:(**مَسَّنِيَ**)، ولم يقل : تفاقم وتراكم كيلا تشعر شكواه بالضجر وعدم الصبر، فإستجاب سبحانه إلى شكواه، وكشف بلواه، وأعاده إلى أحَسن مما كان، ورزقه الله من الأولاد والأحفاد ضعف من فقده منهم رحمة به وجزاء على صبره، وتذكيرا بأن من صبر كما صبر أيوب تكون عاقبته تماماً كعاقبته، وخص سبحانه العابدين بالذكر للإشارة إلى أن الله مع الصابر المُحتسب المُخلص له في أقواله وأفعاله، هذا مجمل ما دلت عليه الآيات المُتعلقة بأيوب، ولم تتعرض للتفاصيل التي ذكرها الرواة والقصاصون؛ لأنها لا تتصل بالعقيدة ولا بالحياة من قريب أو بعيد، ومن طريقة القُرآن أن يذكر من القصة ما فيه عبرة نافعة، وعظة رادعة" (مُغنية، ١٩٨١ م:٥/٢٩٥).

ثانيًا: اطمئنان نبي الله مُوسى وهارون(عليهما السلام)، من بطش فرعون: إنّ اطمئنان العبد لخالقه يجعله دائماً يشعر بالأمن والإيمان والسعادة وهذه دلالة على إن الله سبحانه وتعالى سيكافئ ذلك العبد في الدنيا والآخرة قال تعالى:**(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)** (البقرة:٢٧٧).

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

وعلى العكس من ذلك نرى بإن القُرآن الكريم قد وصف التعالي على الخالق بإنه هلاك في الدنيا والآخرة لا محال، ونموذج هذا هو **(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)** (القصص:٤)، حتى قال: **(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)** (النازعات:٢٤).

ومن هذا القبيل كيف اجاب الله سبحانه وتعالى الى اطمئنان مُوسى وهارون(عليهما السلام)، في قوله تعالى: **(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)** (طه:٤٦).

وهذه الآية الكريمه تُبين كيف" امر الله مُوسى وهارون(عليه السلام)، أن يمضيا إلى فرعون ويدعواه إلى الله **(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى)** (طه:٤٥)، ومعناه ان يتقدم فينا بعذاب" (الطوسي، ١٤٠٩ هـ:٧/١٧٦).

فأجاب الله سبحانه وتعالى" فأنا الكافل الضامن لسلامتكما من غدره وغوائله، وكفى بالله حافظا ونصيرا (مُغنية، ١٩٨١ م:٥/٢١٩)، أي إني سلحتكما بسلاح يرهب فرعون وجنوده، ويمتنعون بسببه عنكما وعن الذين يؤمنون بكما، وهذا السلاح أو السلطان هو الآيات والمعجزات من انقلاب العصا حية وتحوّل اليد البيضاء إلى الجراد، والقمل، والضفادع، وغير ذلك (مُغنية، ١٩٨١ م:٦/٦٥).

وبتعبيرٍ آخر" أي لا تخافا من فرطه وطغيانه إنني حاضر معكما أسمع ما يقال وأرى ما يفعل فأنصركما ولا أخذلكما فهو تأمين بوعد النصرة، فقوله: **(لَا تَخَافَا)** (طه:٤٦)، تأمين، وقوله: **(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)** (طه:٤٦)، وهذا تعليل للتأمين بالحضور والسمع والرؤية، وهو الدليل على أن الجملة كناية عن المُراقبة والنصرة وإلا فنفس الحضور والعلم يعم جميع الأشياء والأحوال" (الطباطبائي :١٤/١٥٦).

فمع وجود الله القادر معكما في كل مكان، الله الذي يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، وهو حاميكما وسندكما، فلا معنى للخوف والرعب، ثم يبين لهما بدقة كيفية إلقاء دعوتهما في محضر فرعون في خمس جمل قصار قاطعة غنية المُحتوى، ترتبط أولها بأصل المهمة، والثانية ببيان مُحتوى المهمة، والثالثة بذكر الدليل والسند، والرابعة بترغيب الذين يقبلونها، وأخيرا فإن الخامسة تكفلت بتهديد المعارضين، فتقول أولاً: فأتياه فقولا أنا رسولاً ربك والجميل

مجلة الدراسات المستدامة
P-ISSN(Print) : 2663-2284
E-ISSN(online): 2663-7413
السنة (٨) المجلد (٨) العدد (٣) تموز. لسنة ٢٠٢٦م - ١٤٤٨ هـ

هنا أنهما بدل أن يقولا(**قَالَا رَبَّنَا**)، فإنهما يقولان(**رَبُّكَ**)، ليثيروا عواطف فرعون وإحساساته تجاه هذه النقطة بأن له ربا، وأنهما رسولاه، ويكونان قد أفهماه بصورة ضمنية أن ادعاء الربوبية لا يصح من أي أحد، فهي مختصة بالله، ثم تقول: فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، الصحيح أن دعوة مُوسى(عليه السلام)، لم تكن من أجل نجاة بني إسرائيل من قبضة الفراعنة فقط، بل كانت – وبشهادة سائر آيات القُرآن – تهدف أيضاً إلى نجاة فرعون والفراعنة أنفسهم من قبضة الشرك وعبادة الأوثان..." (الشيرازي:٨/ ١٠).

ومن الممكن أن يتساءل البعض عند قراءة هذه الآيات المُباركات لماذا يقلق مُوسى (عليها السلام)، ويضطرب ويتردد مع تلك الوعود الإلهية إلى أن يقول الله سبحانه له إذهبا فإنني معكما أسمع كل الكلام، وأرى كل شئ، ولا مجال للقلق مُطلق:

والجواب عن ذلك"إن هذه المهمة كانت ثقيلة جداً، فإن مُوسى(عليه السلام)، الذي كان راعياً للأغنام يُريد أن يذهب مع أخيه فقط إلى حرب رجل قوي مُقتدر، ومُتمرد عاص، والذي يحكم بلداً قوياً في ذلك الزمان، ثم إن هذه الدعوة تبدأ من دعوة فرعون نفسه، لا أن يذهبا أولا إلى الآخرين ليعدا الأنصار والجيوش، بل يجب أن يقدحوا أول شرارة في قلب فرعون، وهذه في الحقيقة مهمة مُعقدة جداً، وصعبة للغاية، إضافة إلى أن للعلم والمعرفة درجات ومراتب، فكثيراً ما يعلم الإنسان بشيء يقيناً، إلا أنه يرغب أن يصل إلى مرحلة علم اليقين الإطمئنان المُطلق، كما أن إبراهيم(عليه السلام)، مع إيمانه القطعي بالمعاد، فإنه طلب من الله أن يريه مشهداً من إحياء الموتى في هذه الدنيا، ليطمئن أكثر" (الشيرازي:١٢/ ١٠).

وللطيف:" انّ الطاعة والعبوديّة توجب رفع الخوف" (المصطفوي، ١٤١٧ هـ:١٤٧/ ٣)، وهذه الصفة تمثل بها نبينا مُوسى(عليه السلام).

الخاتمة والنتائج

ففي النهاية لايسعنا إلا أنّ نشكر الله ورسوله على إتمام هذا البحث مُتوصلين إلى النتائج الآتية:

١- يُعد الدعاء جزءاً أصيلاً من القدر الإلهي، فهو قدرٌ يدفع قدرًا، وليس خارجاً عن مشيئة الله وعلمه.

٢- هناك تمايز بين العلم الإلهي الذاتي (الذي لايتغير)، والعلم الفعلي المُرتبط بتحقق الحوادث، مما يتيح مساحة للتفاعل بين الدعاء والواقع.

٣- يمثل الدعاء السبب الروحي الذي لا يقل أهمية عن الأسباب المادية في تغيير مسارات الحياة الإنسانية.

٤- أثبتت النماذج القرآنية للأنبياء(عليهم السلام)، أن اليقين الروحي يستنزل السكينة والتدخل الإلهي بما يخرق العادات المادية(كما في قصة أيوب ومُوسى(عليهم السلام).

٥- إنّ الطمأنينة القلبية هي الثمرة الأولى لتفاعل الدعاء مع القدر، وهي المحرك لثبات الإنسان في مواجهة المخاوف الكونية.

٦- أن التوافق بين العلم والتغير هو القاعدة التي تفسر كيف يغير الدعاء القدر دون حدوث نقص في كمال الله.

المصادر والمراجع

القُرآن الكريم

١. ابن شهرآشوب. (بدون تاريخ). متشابه القرآن ومختلفه (الطبعة بدون طبعة).

٢. أبو الليث نصر بن مُحَمَّد بن إبراهيم السمرقندي. (بلا تاريخ). تفسير السمرقندي. (تحقيق: محمود مطرجي) بيروت، لبنان: دار الفكر.

٣. أبي الحسن الواحدي النيسابوري. (١٤١٥هـ). الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (الطبعة ١). (تحقيق: صفوان عدنان داوودي) دار القلم ، الدار الشامية.

٤. أبي الحسين سعيد بن هبة الله المشهور به قطب الدين الراوندي. (١٤٠٧ هـ). الدعوات (الطبعة ١). (تحقيق: مدرسة الإمام المهدي(عليه السلام))

٥. ابي الفضل علي الطبرسي. (١٤١٨هـ). مشكاة الأنوار في غرر الأخبار (الطبعة ١). (تحقيق: مهدي هوشمند) دار الحديث.

٦. أبي جعفر مُحَمَّد بن علي بن الحُسين بن بابويه القمي. (١٣٧٩هـ - ١٣٣٨ش). معاني الأخبار. (تحقيق: علي أكبر الغفاري) قم، ايران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المُدرسين.

٧. أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي. (١٤١٨هـ). تفسير جوامع الجامع (الطبعة ١). (تحقيق: مُوسسة النشر الإسلامي) قم، ايران.

٨. أحمد بن مُحْمَّد بن إبراهيم الثعلبي. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م). الكشف والبيان عن تفسير القُرآن (الطبعة ١). (تحقيق: أبي مُحَمَّد بن عاشور) دار إحياء التراث العربي.

٩. احمد فارس بن زكريا. (١٤٠٤ هـ). معجم مقاييس اللغة. (تحقيق: عبدالسلام محمد هارون) قم : ايران: مكتبة الاعلام الاسلامي.

١٠. جعفر السبحاني. (بلا تاريخ). الإيمان والكفر في الكتاب والسنّة. مؤسسة الإمام الصّادق(عليه السلام).

١١. جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري ابن منظور. (بلا تاريخ). لسان العرب. لبنان: ادب الحوزة.

١٢. الدعاء حقيقته (الطبعة ١). (١٤١٩هـ). مركز الرسالة.

١٣. السيد محسن الخزازي. (١٤١٨ هـ). بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية (الطبعة ٥). قم، ايران: مُؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المُدرسين.

١٤. الشيخ أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن إدريس الحلّي. (١٤٠٩هـ). المُنتخب في تفسير القُرآن (الطبعة ١). (تحقيق: السيد مهدي الرجائي) قم، ايران: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة.

١٥. الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي. (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). تفسير مجمع البيان (الطبعة ١). (تحقيق: لجنة من العلماء والمُحققين والأخصائيين) بيروت، لبنان: مُوسسة الأعلمي.

١٦. الشيخ حسن المصطفوي. (١٤١٧ هـ). التحقيق في كلمات القرآن الكريم (الطبعة ١). مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي.

١٧. شيخ رضي الدين مُحَمَّد بن الحسن الأسترآباذي النحوي. (١٩٧٥م). شرح شافية ابن الحاجب. (تحقيق: مُحَمَّد نور الحَسن وآخرون) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

١٨. الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد رضا القمي المشهدي. (١٤٠٧هـ). تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب (الطبعة ١). (تحقيق: حُسَين درگاهي) مُوسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي.

١٩. الشيخ مُحَمَّد جواد مُغنية. (١٩٨١ م). التفسير الكاشف (الطبعة ٣). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

٢٠. عبد الله شبر. (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م). تفسير القُرآن الكريم (الطبعة ٣). (تحقيق: حامد حفني داود) السيد مُرتضى الرضوي.

٢١. فتح الله بن شكر الله الشريف الكاشاني. (١٤٢٣ هـ). زبدة التفاسير (الطبعة ١). (تحقيق: مؤسسة المعارف) قم، ايران: مؤسسة المعارف الاسلامية.

٢٢. القرآن الكريم

٢٣. محسن الفيض الكاشاني. (١٤١٦ه). التفسير الصافي (الطبعة ٢). (تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي) طهران، ايران: مؤسسة الهادي.

٢٤. محمد بن الحسن الطوسي. (١٤٠٩ هـ). التبيان في تفسير القرآن (الطبعة ١). (تحقيق: احمد حبيب قصير العاملي) مكتب الاعلام الاسلامي.

٢٥. مُحَمَّد بن عيسى سورة الترمذي. (١٤٠٣ هـ). سنن الترمذي (الطبعة ٢). (تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف) بيروت، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦. مُحَمَّد جواد البلاغي النجفي. (١٣٥٢هـ-١٩٣٣م). آلاء الرحمن في تفسير القرآن.

٢٧. مُحَمَّد حسين الطباطبائي. (بدون تاريخ). الميزان في تفسير القُرآن. قم، ايران: مُوسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.

٢٨. المولى مُحَمَّد إبراهيم الاسترآبادي. (بدون تاريخ). آيات الأحكام. (تحقيق: الشيخ مُحَمَّد باقر شريف زاده) مكتبة المعراجى.

٢٩. المولى مُحَمَّد باقر المجلسي. (١٤٠٤هـ - ١٣٦٣ش). مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول(عليهم السلام) (الطبعة ٢). (تحقيق: السيّد مرتضى العسكري) دار الكتب الإسلامية.

٣٠. المُولى مُحَمَّد محسن الفيض الكاشاني. (١٤١٨هـ-١٣٧٦ش). التفسير الأصفى (الطبعة ١). (تحقيق: مركز الابحاث والدراسات الاسلامية) مركز النشر التابع لمكتب الاعلام الاسلامي.

٣١. المولي مُحَمَّد صالح المازندراني. (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م). شرح أصول الكافي (الطبعة ١). (الميرزا أبو الحسن الشعراني، و علي عاشور، المحررون) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٢. مير سيد علي الحائري الطهراني. (١٣٣٧ ش). تفسير مقتنيات الدرر. الشيخ محمد الاخوندي مدير دار الكتب الاسلامية.

٣٣. ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن مُحْمَّد الشيرازي الشافعي البيضاوي. (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م). أنوار التنزيل وأسرار التأويل (الطبعة ١). (تحقيق: مُحْمَّد عبد الرحمن المرعشلي) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

٣٤. ناصر مكارم الشيرازي. (بلا تاريخ). الامثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣٥. هاشم الحسيني البحراني. (بدون تاريخ). البرهان في تفسير القرآن (بدون طبعة). قم، ايران: قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة.